

إسهامات د. يحيى بوعزيز في كتابة التاريخ المونوغرافي للمدن الجزائرية-

تلمسان عاصمة المغرب الأوسط أنموذجا

The contributions of Dr. Yahia Bouaziz in writing the monographic history of Algerian cities - Tlemcen as a model for the central Maghreb.

أ.د. يخلف حاج عبد القادر*

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة - قسم التاريخ وعلم الآثار

Hadjabdelkader.ikhlef@univ-oran1.dz

تاريخ القبول: 2025/08/31

تاريخ الاستلام: 2025/06/21

ملخص:

كثيرة هي اهتمامات المؤرخ يحيى بوعزيز في مجال التدوين التاريخي، ومن ذلك ما دوّنه في التاريخ المحلي المونوغرافي، ويندرج كتابه "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" ضمن هذا المجال؛ وقد تناول فيه تلمسان من الجانب السياسي فذكر نشأتها وتطورها التاريخي وآثارها، وفصل بعدها في أصل حكمها البربر الزناتيون؛ ثم أشار إلى انتقالها من التبعية للموحدين إلى الاستقلال وتأسيس الدولة الزيانية سنة 633هـ/1236م، والأدوار التي مرّت بها إلى سقوطها وضمّها إلى الجزائر العثمانية سنة 962هـ/1554م. وفي الجانب الثقافي أكّد المكانة التي حظيت بها كحاضرة علمية، تشدّ إليها الرّحال من كلّ الأصقاع المجاورة، وقد ذكر مشاهير أعلامها بدءاً بأبي مدين شعيب منتهياً عند مؤلّفات أحمد المقرّي، كما تعرّض للأسر العلمية التي كانت تنشر العلم والمعرفة في المغرب الأوسط وما جاوره بين عدوتي غرب البحر المتوسط الشمالية والجنوبية. وتطرّقنا في هذه الدراسة إلى دوافع وأهداف الباحث في تأليفه المذكور سلفاً، ومنهجيته في تناول موضوعاته، ومحتوى الدراسة، والأمانة العلمية للمؤلف، وخلصنا أخيراً إلى تلمسان في مؤلّفات المؤرّخين المحدثين.

كلمات مفتاحية: يحيى بوعزيز، مؤرخ، التاريخ المونوغرافي، تلمسان الزيانية، المغرب الأوسط.

Abstract:

The historian Yahya Bouaziz concerned himself with various fields in his historical writing, including what he wrote on local monographic

history. His book « Tlemcen, Capital of the Central Maghreb » falls within this framework ; where he discussed Tlemcen's history from the political perspective, addressing its origins, historical development, and monuments. He elaborated on the origin of its rulers, the Zenta Berbers; the transition from being under the Almohads to independence and the establishment of the state Zayyanid in the year 633 AH/1236 AD, and the stages it underwent until its fall and incorporation into Ottoman Algeria in the year 962 AH/1554 AD. In terms of culture, it affirmed its status as a scientific capital, attracting scholars and students of knowledge from everywhere, mentioning its famous scholars, and addressing the scholarly families that spread knowledge in Central Maghreb and the banks of the western Mediterranean. In this study, we discussed the motivations and goals of the researcher in his aforementioned work, his methodology in addressing its topics, the content of the study, and the scientific integrity of the author, and we finally concluded with Tlemcen in the works of modern historians.

Keywords: Yahya Bouaziz ; historian ; monographic history ; Tlemcen the Zayyanid ; Central Maghreb.

* أ.د. يخلف حاج عبد القادر

1. مقدمة:

يعدّ الدكتور يحيى بوعزيز - رحمه الله- من المؤرّخين القلائل الذين يملكون قلمًا سيّلا، وقد ترجم ذلك في غزارة الإنتاج الفكري والمعربي الذي دوّنه؛ والمتأمل فيما تركه لنا من آثار بعد رحيله (أعماله الكاملة طبعتها وزارة المجاهدين في عام 2009 في 23 مجلدا) يدرك بأنّه كان لا يؤمن بشرط الكتابة في عصر من العصور، بل إنّّه كان يرى أنّ المؤرّخ يجب أن يكون موسوعيّا، ومن ثم فهو مطالب بالتحرّر وتجاوز هذا القيد، وتوسيع مجال أعماله إلى الكتابة في سائر الحقب، شريطة أن يتسلّح بالمصادر والوثائق التي تعينه على إخراج المادّة التّاريخية منها، وتحويلها إلى حقيقة علمية تستند إلى تلك الأصول التي نقل عنها، وترتكز على الأمانة العلمية والموضوعية في تناول الموضوعات المطروقة من قبل المؤرّخ، التي تجعل منها أعمالا تميّز بالصّدق والمصداقية.

وإذا كان الدكتور يحي بوعزيز قد تجاوز شرط الكتابة لعصر من العصور على سبيل التخصص،
 ليمنح نفسه مساحة أوسع في مجال التدوين التاريخي، فإنه وبنفس الرؤية كتب عن تاريخ بلده الجزائر،
 ولكنّه وسّع دائرة الكتابة إلى التاريخ العام القاري والإقليمي (إفريقيا- آسيا- جزر المحيطات- العرب)،
 إلى جانب إسهاماته في مجال تحقيق المخطوطات الجزائرية النفيسة، التي حقّق عددا منها بغية إخراجها من
 عالم النسيان إلى عالم الشهود؛ وفضلا عن كلّ ذلك اقتحم مجال دراسة سير الأعلام (المجال البيوغرافي) أو
 تاريخ الشخصيات، فكتب عن كثير من الشخصيات الكاريزمية الجزائرية وفي مقدّمها الأمير عبد القادر.
 ولم يفته أنّ الكتابة في التاريخ المحلي المونوغرافي -وهي دراسة مستفيضة حول موضوع محدد
 ومحدود¹- تصبّ في خانة تحديث الكتابة التاريخية، التي طرحتها مدرسة الحوليات الفرنسية في مطلع القرن
 العشرين كجزء من التاريخ الجديد، وقد ذكر في هذا السياق ميشيل فوفيل (Michel Vovelle) أمثلة
 كثيرة عن هذه الدراسات المونوغرافية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: "الخصائص المميزة للتاريخ الريفي
 الفرنسي"² لمارك بلوخ (Marc Bloch)، و"إشبيلية والمحيط الأطلسي ما بين 1504 و1650: هياكل
 وظروف المحيط الأطلسي الإسباني الأمريكي لاتيبي (1504-1650)"³ لبيار شونو (Pierre
 Chaunu)⁴؛ ومما لا شكّ فيه أنّ المونوغرافيا التاريخية تركّز في كتابتها على التاريخ المحلي الذي يكون
 مطيّة إلى كتابة تاريخ شمولي، تكتمل فيه الصورة بتنسيق جميع أجزائها. فهذا النوع من الكتابة يتخطّى عتبة
 التاريخ الحدثي والبطولي، السياسي والعسكري؛ الذي انصبّت حوله جلّ كتابات مصادر الإسطوغرافيا
 الكلاسيكية، وهو يرسم لنا البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والحضاري لدراسة منطقة من المناطق
 (إقليم، جهة- مدينة- قبيلة- قرية، مؤسسة...) بشكل دقيق يشمل هذه الجوانب والتفاصيل المختلفة.

¹ - الموقع الإلكتروني: <https://www.cnrtl.fr> بتاريخ 2023/03/01.

² - Marc Bloch, Les caractéristiques distinctives de l'histoire rurale française, T1, 303 pages. T2, 314 pages.

³ - Pierre Chaunu, Séville et l'Atlantique, 1504-1650 : Structures et conjoncture de l'Atlantique espagnol et hispano-américain (1504-1650). Tome I: Structures géographiques, 1212 pages.

⁴ - جاك لوغوف، التاريخ الجديد، صص 141-142.

في هذا الإطار نجد ما كتبه د. يحي بوعزيز عن "دائرة الجعافرة تاريخ وحضارة وجهاد، إسهاماتها الثقافية والنضالية عبر العصور"⁵، الذي نجمه إلى أربعة أقسام، تناول في قسمه الأول دائرة الجعافرة عبر التاريخ، وفي القسم الثاني تحدث عن رجال العلم والفكر والتربية والثقافة وسير بعض العلماء المشهورين في منطقة الجعافرة، أما القسم الثالث فإنه يتعلق بدائرة الجعافرة وثورة أول نوفمبر 1954-1962، وختم دراسته هذه بالقسم الرابع الذي تطرّق فيه إلى دائرة الجعافرة في عهد الاستقلال⁶. وفي نفس المنحى كتب مؤلفه "مدينة وهران عبر التاريخ"، وقد قسّم دراسته إلى ثلاثة أقسام: خصّ أوله بالحديث عن تاريخ وهران منذ نشأتها إلى الاحتلال الفرنسي لها في 7 يناير 1831، وفي القسم الثاني فصّل في الآثار العمرانية للمدينة من قصور وأبراج، وحصون وأسوار، وأبواب ومساجد ورباطات، وأنفاق أرضية ومقابر؛ بينما خصّص القسم الثالث للحديث عن بعض الأعلام الذين أنجبهم المدينة، وألوف الذين إليها والمستقرّين بها. وقد ارتبطت أسماءهم بتاريخها وحضارتها⁷.

إلى ذلك يضاف كتابه "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط"، الذي ركّزنا عليه اهتمامنا كنموذج لدراساته المونوغرافية، وارتأينا أن نغوص في قراءة محتواه في دراستنا هذه، محاولين الإجابة عن إشكاليته الرئيسة التالية: كيف أصبحت تلمسان عاصمة للدولة الزيانية؟ وما هي الدوافع التي حفّزت د. بوعزيز لكتابة مؤلفه هذا؟ وما هي أقسامه ومحتوياته؟ وإذا كنّا نعدّ كتاب "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" من التاريخ المونوغرافي للمدن الجزائرية؟ فإلى أيّ مدى نجح مؤرّخنا في خوض غمار هذا النوع من الكتابة التاريخية؟ ونحن نروم في هذه الدراسة الإلمام بمختلف أقسام الكتاب، سواء تعلّق الأمر بالجانب السياسي لتلمسان الزيانية، أو بالشقّ الثقافي الذي اشتهرت به من خلال مشاهير أعلامها يوم كانت حاضرة علمية، تشدّ إليها الرّحال من كل حدب وصوب، كما نشير إلى أنّنا اعتمدنا المنهج التاريخي السردّي التحليلي، بعرض المادة التي نخدم هدف هذه الدراسة، وقد حاولنا مناقشتها والتعليق عليها بكلّ موضوعية.

⁵ - صدر هذا الكتاب عن دار هومة للنشر، الجزائر، بتاريخ 1 يناير 2012، ويقع في 455 صفحة.

⁶ - المرجع نفسه، صص 259-316.

⁷ - عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2009، ص 15.

2. دوافع وأهداف تأليف كتاب "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط":

لعلّ الدكتور يحيى بوعزيز رحمه الله سبق غيره في التأليف عن تلمسان، باعتباره أول من طرق باب الكتابة في موضوع تاريخ وحضارة تلمسان من المؤرّخين المعاصرين في جزائر ما بعد استرجاع السيادة الوطنية، فقد انتهى من تدوين كتابه المذكور في 6 أكتوبر 1983، ممّا يعني أنّ تاريخ صدوره للقراء كان في هذه السنة، وأعيد طبعه بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية سنة 2007.

ممّا يجب التنويه به أنّ د. يحيى بوعزيز أشار في تمهيدته وتقديمه لكتابه هذا بأنّه كان في الأصل جزءاً كبيراً من مخطوط عنوانه "وهران وتلمسان عبر التاريخ"، ونظراً لحجمه الكبير ارتأى أن يقسّمه إلى قسمين، ليدرّس كلّ قسم على حدة⁸؛ وهو ما يعني أنّ هذا التقسيم حقّزه للعمل في موضوع المخطوط بكلّ أريحية وفسح له المجال للتصرّف فيه بما يخدم الفكرة التي انطلق منها، من أجل الوصول إلى الأهداف والنتائج المرجوة في نهاية كلّ قسم في كتابين منفصلين عن بعضهما؛ وعندئذ بدأ بالاشتغال على مدينة وهران عبر التاريخ، ولما فرغ منه انتقل بعدها للعمل على الشقّ الخاص بمدينة تلمسان.

يفهم من كلامه أنّه استخرج مادّته العلمية من هذا المخطوط، دون أن يقدّم إلينا أدنى معلومات عنه وعن مكان تواجده، وما إذا كان ملكية عامّة بحزينة من الخزائن على المستوى الوطني؛ أو ملكية خاصة لأسرة من الأسر كانت تحتفظ به، وأعتقد شخصياً أنّه لم يعثر على غير هذه النسخة، ومهما يكن من أمره فإنّه عوض أن يقوم بتحقيق المخطوط على عادة ما درج عليه المؤرّخون عند عثورهم على مثل هذه القطع النفيسة من كنوز المعرفة، لتبسيط وتسهيل قراءة محتواها وإخراجها إلى النور لتستفيد منها الخاصّة من أهل التخصص والعامة من أهل الفضول المعرفي؛ فضّل د. يحيى بوعزيز أن يقوم بدراسة مستقلّة عن المدينتين استناداً إلى هذا المخطوط؟، ومن ثمّ فإنّ الهدف من دراسته هذه يكمن في معالجته لتاريخ وحضارة حاضرة تلمسان في الفترة الزبانية، من خلال نصوص المخطوط التي كانت بين يديه عندما أنجز عمله عنها⁹.

3. منهجيته في تناول موضوعات كتابه:

⁸ - يحيى بوعزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ص 10-11.

⁹ - المرجع نفسه، ص 10.

إنّ من يقرأ للدكتور يحي بوعزيز يلاحظ أنّه عاج فصول كتابه "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" وفقاً للتحقيب الموضوعاتي "التيماي" وهو تحقيب أفقي، وذلك بالنظر إلى كثرة العناوين التي اختارها في كلّ فصل؛ إلّا أنّه لا يسقط من عمله التقسيم العمودي الذي يعتمد على التاريخ التسلسلي "الكرونولوجي" ضمن الإطار الزمني العام لتلمسان في العصر الوسيط باعتبار أنّه هو المقصود بالدراسة، كما يوضّح ذلك عنوان الكتاب، وهنا وجدناه يحترم السّلم الزمني بالتدرّج عبر أحداثه من السّابق إلى اللاحق، دون إخلال بهذا الشرط.

لعلّ من الأسباب التي دفعته إلى اختيار أكثر من منهج في نفس الوقت، طبيعة مادّة موضوعه وتنوّعها، التي أجبرته على التنقل بين فصولها بشكل أفقي، إذ أنّه لا يمكن إخضاعها مبدئيّاً إلى التسلسل التاريخي؛ لكنّه إذا ما طرق عنوانا من العناوين البارزة التي وضعها داخل إطار الفصل، عالجها بشكل عمودي يستجيب لتطوّر الحدث من الماضي إلى الحاضر، الذي يحدّثنا عنه بكلّ ما يخدم الترتيب الزمني على عادة التأريخ بالسنين، الذي اشتهرت به معظم مظان الإسطوغرافيا العربية القروسطية.

والملاحظ أنّه استخدم في دراسته لموضوعه المنهج الاستردادي أو التاريخي، الذي يركّز فيه الباحث على عمق الملاحظة ودقّة الوجدان واتساع دائرة الخيال، فضلاً عن كلّ ما يعثر عليه من آثار وأحداث - وإن كان ذلك لا يتعدّى إطار وثيقة المخطوط الذي بحوزته-، ليخرج في النهاية باستنتاج يطمئنّ إليه من مبادئ وأحكام ووقائع، تفضي به إلى استنتاج فكري مجرد¹⁰.

وقد اقتضت خطّة عمله التي اعتمدها في تناول دراسته لتلمسان أن يقوم بتنظيم موضوعه إلى قسمين: الأول والثاني جعلهما قصيرين، فأوجز في أولهما الحديث عن تلمسان المدينة من غابر الأزمان، وفي ثانيهما تاريخ الدولة الزيانية من نشأتها إلى انقراضها في منتصف القرن 10هـ/16م، مع الإشارة إلى بعض آثارها العمرانية الباقية إلى اليوم.

¹⁰ - محمد بن صامل السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 132.

في حين جاء القسم الثالث، الذي أراد له أن يكون واسعاً بما فيه الكفاية مقارنة مع القسمين السابقين، فهو يمثل ثلثي حجم دراسته، ومما أورده بهذا الخصوص: "أما القسم الثالث ... وخصّصناه لدراسة عدد من الشخصيات العلمية والفكرية، التي أنجبتها هذه المدينة، أو عاشت بها وارتبطت بتاريخها؛ وكان لها تأثير بالغ في الحياة الدينية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، سواء داخل تلمسان والجزائر، أو خارجها بالمغرب الأقصى والأندلس، وأعماق الصحراء وتونس، وبلدان المشرق العربي الأخرى"¹¹.

وقد وقف الأستاذ بوعزيز على ذكر هذه الشخصيات العملاقة التي كانت تترنّ بها تلمسان باعتبارها حاضرة المغرب الأوسط في العهد الزيّاني، وختم كلامه بقوله: "وذلك إسهاماً في بعث أجداد تاريخ هذه البلاد، الفكرية والحضارية، العربية الإسلامية، والإنسانية بصفة عامة"¹².

4. محتوى الدراسة:

قبل الحديث عن فحوى العمل الذي قدّمه إلينا الدكتور يحيى بوعزيز يجب الإشارة إلى أنّ كتابه "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" يقع في 247 صفحة بعد التمهيد والتقديم، قبل صفحات قائمة المصادر والمراجع وفهرس محتويات الكتاب¹³.

وقد تناول في القسم الأول منه المعنون بمدينة تلمسان عبر التاريخ، نشأتها وتطورها التاريخي، ثمّ تعرّض بإسهاب إلى وصف يحيى ابن خلدون لها؛ وفي القسم الثاني من دراسته انتقل إلى الحديث عن آثار مدينة تلمسان التاريخية، وذكر هذه الآثار باقتضاب، لكنه فصّل في نشأة المنصورة والمراحل التي مرّت بها

¹¹ - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المرجع السابق، ص11.

¹² - المرجع نفسه، ص11.

¹³ - مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر للنشر والتوزيع - الجزائر، طبعة خاصة 2009. باعتبارها الطبعة الكاملة، التي أضاف إليها القسم الثالث الذي حذف في الطبعة الأولى سنة 1986. غير أنّ اعتمادنا في هذه الدراسة كان على سحب الطباعة الشعبية للجيش، لقلة الأخطاء المطبعية بها مقارنة مع طبعة دار البصائر، باستثناء القسم الثالث الذي اختصّت به عن الطبعة الأولى.

عبر التاريخ إلى أن صارت خرائب، تقف شامخة بأبجادهما وعصاميتهما، وبطولات أجيالها وأصالة حضارتها الفنيّة والفكرية والتاريخية والحضارية¹⁴.

أمّا حديثه عن ساكنة المدينة فبدأه بذكر أصل بني عبد الواد البربر، وهم فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة، ويخبرنا استنادا إلى ابن خلدون - وإن لم يصرّح بذلك - أنّهم ينقسمون إلى عدّة بطون، وكانت الرياسة فيهم لبني القاسم¹⁵، وكانوا أيضا عدّة أفخاذ، وقد انتقلوا من التبعية للموحدين إلى الاستقلال، بعد أن اعترف الخليفة الموحي لجابر بن يوسف، وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة، بعد أن وقف بمجموعه في وجه ابن غانية، فرجع خائبا دون أن يحقّق ما كان يصبو إليه. فكانت تلك بداية الدولة التي سيؤسّسها خلفه يغمراسن بن زيان على عهد الخليفة الموحي الرشيد الذي عهد له بولايتها سنة 633هـ/1236م¹⁶.

عندما قامت دولة بني عبد الواد فرض عليها موقعها أن تكون محصورة بين كفتي كمشة، فتارة يأتيتها العدوان من الشرق على يد الحفصيين، وتارة يباغتها المرينيون من الغرب، ومن أجل ذلك وجدت نفسها مضطّرة للدخول في الصراع على جبهتين، فمرّت بمراحل وأدوار، أولها دور الاستقلال عن الحفصيين والخضوع للمرينيين، الذي أعقبه دور البعث الثاني للدولة، الذي تلاه التدخل المريني ضدها؛ لتتخلّص منه بإعادة البعث الثالث لدولة بني عبد الواد الزيانية، ولم تنعم بكثير من الراحة حتّى عاد الحفصيون إليها في دور تدخلهم الثاني، وضمن هذه الأحداث يسوق إلينا الدكتور يحي بوعزيز التّكبة التي حلّت بالكاتب يحي بن خلدون الذي قتله الأمير أبو تاشفين ابن أبي حمّو بسبب الصراع بين الإخوة على الولايات، وما كان من أمر الوشايات والدسائس في القصر التلمساني من الحساد على يحي، فكان ضحيّة جشع السلطة والجهل بقيمة الأعلام¹⁷.

¹⁴ - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وزارة الثقافة...، المرجع السابق، صص 39-47.

¹⁵ - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، صص 97-98.

¹⁶ - المصدر نفسه، ج 6، ص 390. / تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المرجع السابق، صص 50-52.

¹⁷ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 187. / تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المرجع السابق، صص 61-78.

تعرّض الدكتور يحيى بوعزيز في الدور الأخير من أدوار هذه الدولة إلى التدخل الإسباني في الشؤون الداخلية للإمارة الزيانية، التي أصبح همّ سلاطينها الحفاظ على عروشهم، ولو كان ذلك بالاستعانة بالكفار الصليبيين من الإسبان الذين استولوا على وهران، وأصبحوا كلّما جاءهم مخلوع بادروا إلى إعادته إلى منصبه، محققين بذلك الغلبة لطرف على طرف تجسيدا لغلبتهم، وأهمل السلاطين شؤون الرّعية التي وجدت في الأتراك العثمانيين خير منقذ لهم، من هذا العبث السياسي الذي وقع فيه أمراء بني زيّان المتأخرين، وبين أخذ وردّ وشدّ وجذب انتهت أمور المدينة إلى الدخول في حوزة الإخوة بربروس، وضمتها إلى الجزائر العثمانية نهائيا سنة 962هـ/1554م، بعد أن عمّرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما¹⁸.

5. الأمانة العلمية والموضوعية:

بادئ ذي بدء أودّ أن أشير إلى ما ذكره الدكتور يحيى بوعزيز في تقديمه لموضوع دراسته، التي قال عنها: "وهذه الدراسة التي تقدّمها اليوم للقرّاء عن مدينة تلمسان كانت في الأصل جزءا من مخطوط كبير يحمل عنوان: "وهران، وتلمسان عبر التاريخ"؛ إلّا أنّه بالعودة إلى دراسته من أولها إلى آخرها لا نعثر على إحالة واحدة في تهميشاته للمادة الخبزية التي ساقها إلينا في ثانيا عمله من المخطوط الذي كان بحوزته.

للامانة العلمية فقد همّش الدكتور يحيى بوعزيز لنصوصه التي استشهد بها في دراسته في القسمين الأولين من كتابه "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" التي لا تحتوي على القسم الثالث، والتي كانت الطباعة الشعبية للجيش قامت بسحبها، وصدرت عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، وهي تقع في 92 صفحة. وقد بلغ عدد استشاداته فيها 20 تهميشا، وكانت هذه التهميشات بحسب الترتيب للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها وذكرها لنا كالتالي:

- عبد الرحمن ابن خلدون، في كتابه تاريخ العبر، ج7، وظّفه 12 مرّة.
- أبو زكرياء يحيى ابن خلدون، في كتابه بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، استعمله في مناسبتين لا غير.
- عبد الرحمن الجيلالي، في تاريخ الجزائر العام، الذي وظّفه هو الآخر في مناسبتين.

¹⁸ - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المرجع السابق، صص 87.

- يحي بوعزيز، في كتابه الموجز في تاريخ الجزائر، استعمله في موطن واحد فحسب.
- وفي كتابيه: علاقات الجزائر الخارجية مع بلدان وممالك أوروبا 1500-1830، ووهران عبر التاريخ، قبل صدورها، عندما تعرّض للتحريّسات الإسبانية ضد إمارة تلمسان وسواحل الجزائر وبلدان المغرب، وكان ذلك أيضا في مناسبة واحدة لا أكثر.

- عبد الحميد حاجيات، "أبو حمّو موسى الثاني حياته وآثاره، في مناسبة واحدة
- وأثناء حديثه عن المنشآت العمرانية لتلمسان ذكر في مناسبة واحدة ووحيدة كتابي:

- W. Marçais, G. Marçais : Les moments arabes de Tlemcen, Paris, 1903.

- Les villes d'arts célèbres. Tlemcen, Paris, 1950.

من اللافت للانتباه أنّ القارئ لكتابه هذا يلاحظ بأنّ الدكتور يحي بوعزيز -رحمه الله- قد يسرد حقائق تاريخية بأسلوبه الخاص لكنه لا يشير إليها، ولو استغرق ذلك منه صفحات طوال، ومثال ذلك استرساله في عرض تاريخ المدينة من ص18 إلى ص23 دون أن يهتمّ لهذه الصفحات، ويمثل ذلك فعل في وصفه لتلمسان، فلم يهتمّ لنصوصه من ص26 إلى ص36.

الغريب في الأمر أنّه يذكر في المتن أنّه ينقل عن أصحاب النصوص التي استقى منها معلوماته، حيث يقول: "وتحدّث عنها ابن الرّقيق مرّتين..."، كما ينقل عن الطبري ويذكر اسمه في أحداث أبي قرة اليفرني الخارجي زعيم بني يفرن¹⁹. ودائما في وصفه لتلمسان ينقل عن البكري، فيقول: "وقال عنها البكري..." ثم يذكر نصّا آخر لمحمد العبدري في رحلته، ونصّا ليحي ابن خلدون وآخر لأبي الفداء، وينتهي وصفه للمدينة بنص للسان الدين بن الخطيب، ويختتم بمطلع بيت من الشعر في قصيدة طويلة لمحمد بن خميس وكعادته لا يذكر لنا بيانات موارده²⁰.

بالوقوف على هذه النصوص نجد أنّها تعود فعلا إلى المؤلّفين الذين نقل عنهم، ولا يمكن أن يفسّر ذلك بأنّه تستر وإخفاء لمصادره، أو نقص في الأمانة العلمية للرّجل، بقدر ما هو أسلوب في الكتابة كان

¹⁹ - المرجع نفسه، ص17.

²⁰ - نفسه، ص26.

متّبعاً في فترة ما بعد تحرير الجزائر، من قبل المدرسة التاريخية التي كتبت تاريخ الجزائر معتمدة على نط الكتابة التاريخية للفترة الوسيطية؛ التي كانت تذكر اسم المؤرّخ أحيانا أو تذكر اسم مؤلّفه في أحيان أخرى، دون الأخذ في الحسبان ذكر من قام بتحقيقه إن كان محققاً، ولا حديث عن دار النشر والجزء والصفحة في كلّ ذلك.

عندئذ لا يمكن اتّهام الدكتور يحي بوعزيز بعدم الموضوعية في كتابته التاريخية، انطلاقاً من الأمانة العلمية التي تعتبر أول ما يشير إلى نزاهة المؤرّخ في منهجية كتابته للتاريخ، بعيداً عن الذاتية المقيتة، ويبدو أنّ مؤرّخنا كان مزيجاً بين مدرستين المدرسة التي أشرنا إليها، وكان من أقطابها مبارك بن محمد الملي في "تاريخ الجزائر القديم والحديث"²¹، وأحمد توفيق المدني في كتاباته ومنها "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م"²². والمدرسة الثانية التي غيّرت طريقة التهميش بناء على ما أصبح معتمداً في الجامعات العالمية، على أنّه تهميشاً أكاديمياً، وكان من روادها الدكتور أبو القاسم سعد الله، ولم يحدث أن خرج عن هذا الضابط في كلّ مؤلّفاته التاريخية، وبدون استثناء.

بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية يمكن اعتبار الدكتور يحي بوعزيز - بشكل عام - مخضرمًا، يضع إحدى قدميه مع المدرسة الأولى، بينما يضع القدم الأخرى مع المدرسة الجديدة، ولذلك نعتقد أنّه يستفيض في ذكره للأحداث ولا يهّمّش إلّا في الحالات القليلة، ويفضّل أن يأتي بالخبر وفق أسلوبه متصرّفاً في النصّ من مصدره الأصلي.

²¹ - والواقع الذي يشهد به نقله لهذه النصوص التي استشهد بها عن من ذكرنا من المصادر بداية من نص البكري إلى بيت الشعر للشاعر التلمساني محمد بن خيس هو نقل عن مبارك بن محمد الملي، الذي ذكر هذه النصوص عن أصحابها مع شيء من التصرف، في حديثه عن عاصمة المملكة الزيانية، والغريب في الأمر أنّه لم يكلّف نفسه عناء العودة إلى هذه المصادر للتأكّد من نصوصه كما وردت عند أصحابها، واكتفى بنقلها كما هي تقريباً عن الملي، مع شيء قليل من الاختزال واستبدال لبعض الكلمات، وبالعودة إلى مواطن هذه النصوص عند الملي يمكن للمرء أن يتأكّد من صحّة قولنا. ينظر: مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، صص 444-447.

²² - خصّ المدني تلمسان بعدّة عناصر تحدّث فيها عن سقوطها في قبضة الإسبان، وغوض العثمانيين إلى نجدتها بطلب من أعيانها، إلى جانب ردّ عدوان السعديين بعد هزيمتهم النكراء إلى ما رواء واد ملوية، وإقراهم بالحدود بين الجزائر والمغرب من ساحل البحر إلى بداية الصحراء سنة 961هـ/1553م، وإعلان صالح رايس نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان غائباً إلى الدولة الجزائرية وإلى الأبد سنة 962هـ/1554م. لكنّه يتسرّع عن ذكر مصادره التي أورد منها اخباره. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، صص 310-313، صص 321-331.

أمّا أسلوبه الذي كتب به فهو أسلوب سهل وبسيط، عباراته مفهومة وجمله قصيرة، ليس فيها إطناب، فهو لا يتّجه للحدث مباشرة فيذكره بما يجليّه للقارئ دون عناء، إلّا أنّه نادرا ما يقع في بعض الهينات المطبعية، كقوله: "على أنّ أهم آثار تلمسان التاريخية برزوا"، هي خرائب مدينة المنصورة"، والصواب إحلال كلمة "بروزاً" محلّ لفظة "برزوا"²³. كما أنّه نادرا ما يقع في لبس بالتواريخ، ومثال ذلك عندما ذكر "مسجد أبي الحسن بن يخلف التنسي، الذي كان يدرّس بتلمسان أيام أبي سعيد"، ثمّ قال سنة 1279هـ، علما أنّ المدينة دخلت في حكم الجزائر العثمانية سنة 962هـ/1554م، وعندئذ فتاريخ 1279 ميلاديا وليس هجريا²⁴.

مّا يستوجب الوقوف عنده أيضا أنّك تجده لا يسير على منهجية واحدة في كتابته للتواريخ، فتارة يكتب التاريخ بالأحرف ومثال ذلك في قوله: "حسب ما تضمّن ذلك رسم سنة ثمان وخمسين وسبعمئة" وفي قوله: "وابتداً سورها السيد موسى بن يوسف العسري... سنة ستّ وخمسين وخمسمئة"²⁵؛ ويمكن إرجاع ذلك إلى محاولة احتفاظه بالنصّ كما ورد عند صاحبه يحيى ابن خلدون. ومن منهجيته في كتابة التواريخ -أيضا- أنّه يكتب التاريخ الهجري، ويشير إلى ما يوافقه بالتاريخ الميلادي مباشرة كما هو الحال في ذكره لتشييد مسجد سيدي الحلوي الذي أمر ببنائه أبو عنان المريني سنة 754هـ/1353م²⁶. ويشير بعده إلى معظم تواريخ الأحداث التي ينقلها إلينا بالتاريخ الميلادي دون التاريخ الهجري، ويمكن ملاحظة ذلك بشكل خاص بداية من عنصر المراحل والأدوار التاريخية للدولة الزيانية إلى نهاية الكتاب²⁷.

أمّا القسم الثالث الذي أضافه إلى كتابه في طبعته الثانية، والذي طبعته دار البصائر، طبعة خاصة 2009، فمن الأمانة أن نذكر بأنّ هذه الطبعة تحتوي من الأخطاء المطبعية ما لا حصر له، ولا شك أنّ الأستاذ يحيى بوعزيز بريء من كلّ هذه الأخطاء التي وردت في المتن والهوامش، وأنّ المسؤولية كاملة تقع

²³ - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المرجع السابق، ص39.

²⁴ - المرجع نفسه، ص37.

²⁵ - نفسه، ص30، ص33.

²⁶ - نفسه، ص38.

²⁷ - نفسه، صص48-88.

على دار النشر؛ ونظرا لذلك ارتأينا إن لا ندرس هذا القسم إلا من حيث منهجية التهميش التي اتبعتها الأستاذ المرحوم يحي بوعزيز في هذا القسم مقارنة مع القسمين السابقين، ومن أهم الملاحظات التي سجلناها حول ذلك:

- يبدأ هذا القسم من ص 63 بترجمة الشيخ أبي مدين شعيب، وينتهي عند ص 259 بالمؤلف رقم 12 من مؤلفات أحمد المقرئ، وهو يتعلّق بـ"مجموعة أراجيز شعرية في أغراض متنوعة، وعددها 17 أرجوزة.
- شملت تراجمه علماء مدينة تلمسان حيث ذكر أبا مدين شعيب، والأسر العلمية التي حفلت بها المدينة: أسرة أبناء الإمام، أسرة المرازقة، أسرة العقباني، وأسرة المقرئ، والأخوين ابن خلدون عبد الرحمن ويحي، وأبا عبد الله الشريف العلوي التلمساني، محمد بن عبد الكريم المغيلي.
- تميّزت منهجيته في تراجمه لعلماء تلمسان بالتهميش لكل علم منهم في الفقرة الأولى من الصفحة التي يختصّها لترجمته، ثمّ يختفي التهميش بعد ذلك في باقي الصفحات التي خصّصها له، وهو ما يمكن ملاحظته مثلا في ترجمته لأسرة أبناء الإمام²⁸، ويتكرّر هذا عنده كمنهجية سار عليها في سائر ترجماته لعلماء الحاضرة الزيرية.
- همّش ترجمته للقاضي أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني فذكر المصدر الأول لموارده ابن مريم: البستان، ص 106-107؛ ثمّ سرد أسماء المؤلفين الذين ترجموه أيضا، دون ذكر لمؤلّفاتهم، وصفحات تراجمهم له²⁹.
- انعدام التهميش تماما في ترجمته لبعض الأعلام، كالشيخ أبي عبد الله الشريف العلوي التلمساني³⁰، وأبي زكريا يحي ابن خلدون³¹.
- أمّا العلامة ابن خلدون فمن جملة 54 صفحة خصّه بها في ترجمته، لم يهمش له فيها إلا خمس مرّات، وأوّل تهميش وضعه له بعد 33 صفحة³².

²⁸ - مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، طبعة دار البصائر، المرجع السابق، صص 71-78.

²⁹ - المرجع نفسه، ص 135.

³⁰ - نفسه، صص 125-133.

³¹ - نفسه، صص 205-217.

³² - نفسه، صص 145-204، وأوّل تهميش كان في ص 178.

- هناك مراجع ذكرها في هامش متن تراجمه، ولم يذكرها بكلّ بياناتها (دار النشر، سنة النشر)، واكتفى بذكر اسمها مختصرا وصفحة نقله عنها، وفي قائمة المصادر والمراجع لا وجود لها على الإطلاق، ومثال

ذلك³³: A. Bell. L'inscription Arabe de Fes:

* المراجع باللغة الفرنسية التي ذكرها في هوامش ترجماته، ومعظمها ناقصة البيانات، لم يدونها في القائمة البيبليوغرافية.

- أكثر المصادر والمراجع حضورا في تراجمه في هذا القسم، هي كالتالي:

* البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم محمد المليتي: استشهد به في 14 مناسبة.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري أحمد: استشهد به في 12 موطن.

* تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي محمد بن إبراهيم: ذكره في 7 مناسبات

* مقدمة ابن خلدون: نقل عنها 5 مرّات

* بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي ابن خلدون: ورد ذكره في تراجمه 5 مرّات.

* نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتبكي أحمد بابا: ورد استشهد به 5 مرات.

* تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي: استشهد به في 5 مواطن.

* التعريف بابن خلدون: في 4 مناسبات

* تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي: 4 مرات.

* جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضي أحمد الفاسي: 3 مرات.

6. تلمسان دراسة شاملة في كتابة المؤرخين المحدثين:

نشير إلى أنّ هناك دراسات حديثة أخرى تناولت موضوع تلمسان في مختلف مجالات الحياة، ومن هذه المؤلفات العناوين التالية: "باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان" كتبه أستاذ من أبناء المدينة، وهو يقع في جزأين، خصّ جزأه الأول بأربعة أقسام (القسم الجغرافي - القسم

التاريخي- القسم الفني- والقسم العمراني؛ أما الجزء الثاني فقد قفّسّمه إلى خمسة أقسام (القسم الاقتصادي- القسم الاجتماعي- القسم الثقافي- القسم العلمي- القسم الأدبي). وقال عنه واضع مقدمته الحاج الغوثي بن احمدان بأنّه تمّ تأليفه في نوفمبر 1983، لكنّه تأخر عن الطبع أكثر من سبع سنوات لعراقيل شتّى حالت دون ذلك. وبقيت الأمور على هذه الحال إلى أن توفّي صاحبه في مارس سنة 1991، وقام ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر بطبعه سنة 2011م³⁴.

أما ما كُتِب عن تلمسان بعد ذلك فهو استمرارية لما سبق الحديث عنه، وأعني بذلك "تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر"³⁵، الذي تلاه كتاب "تلمسان في العهد الزبّاني" للدكتور عبد العزيز الفيلالي، الذي قسّمه إلى جزأين، جعل أولهما عن الأوضاع الداخلية للدولة الزبّانية من النشأة إلى مرحلة الضعف، وانتقل إلى الحديث عن المظاهر العمرانية للمدينة، ثم الأوضاع الاجتماعية، أما الجزء الثاني فقد خصّ فيه مظاهر الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان متحدثا عن التيارات الفكرية والعلوم الدينية³⁶.

وآخر ما ألّف من الكتب عن المدينة -حسب علمنا- كان تحت عنوان " تاريخ الدولة الزبّانية" لمختار حساني، وقد قسّمه إلى ثلاثة أجزاء، أوله خصّ به الأحوال السياسية، والثاني تحدث فيه عن الأحوال الاقتصادية والثقافية، أما الثالث والآخر فقد ضمّن الأحوال الاجتماعية، وانتهى من تأليفه في أكتوبر سنة 2007م³⁷.

7. الخاتمة:

- يعتبر كتاب "تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" لصاحبه الدكتور يحي بوعزيز - رحمه الله- أحد مؤلفاته التي بلغت 23 مؤلفا في مجملها.
- يندرج هذا الكتاب ضمن الكتابة للتاريخ المحلي (التاريخ المونوغرافي) لحاضرة تلمسان، وهو أحد أعماله التي كتبها في هذا الإطار مثلما كتب عن "وهران عبر العصور" وعن مسقط رأسه "دائرة الجعافرة".

³⁴- محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زبّان، ج1، ص7.

³⁵- محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، 323ص.

³⁶- المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية- الجزائر، 2002، 640ص.

³⁷- مختار حساني، تاريخ الدولة الزبّانية، الجزء 1 يقع في 244ص، الجزء 2 يقع في 331ص، الجزء 3 يقع في 290ص.

- كان بوعزيز - رحمه الله - السباق إلى كتابة تاريخ الحاضرة تلمسان، وكلّ ما كتبه المؤرّخون المحدثون جاء بعد كتابه السابق الذكر.
- عالج موضوع دراسته وفقا للتحقيب التيماتي الأفقي، نظرا لطبيعة المادة المتنوعة التي وظفها في كتابه، لكنه لم يهمل البتة التسلسل الكرونولوجي في إطار الحدث الواحد، وما يليه من أحداث مترابطة فيما يعالجه من نصوص.
- استخدم المنهج الاستردادي أو التاريخي الذي يعطيه هامشا واسعا للملاحظة الدقيقة، والتعليق على نصوصه وحرية التصرف فيها دون تغيير لمحتوى النص عن أصله.
- قسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام، فجعل القسمين الأول والثاني مختصرين، بينما خصّ القسم الثالث بمعظم دراسته، وركّز في محتواه على الجانب الثقافي والفكري للمدينة.
- رغم أمانته العلمية التي لا نشكّ فيها، لم يكن دائما يهّمش لنصوصه التي يستشهد بها، فقد يذكر صاحب النص، ولا يذكر من أين نقل عنه وأين؟ ورغم ذلك لا يمكن الطعن في موضوعيته وأمانته العلمية، لأنّه ينتمي إلى مدرسة زوجت بين التأريخ وفق الطريقة الكلاسيكية التي كانت سائدة في العصر الوسيط، والطريقة التي أصبحت معتمدة في منهجية العمل الأكاديمي على مستوى جامعات العالم المعاصر.
- أمّا تراجمه لعلماء تلمسان فقد تميّزت بالتهميش لكلّ علم منهم في الفقرة الأولى من الصفحة التي يختصّها لترجمته، ثمّ يغيب التهميش عن باقي الصفحات التي خصّصها له، ويتكرّر هذا عنده كمنهجية سار عليها في سائر ترجماته لعلماء الحاضرة الزيانية.
- رغم أنّ عمله هذا كان دراسة مونوغرافية عن مدينة تلمسان، إلّا أنّه لم يكتب عنها في مختلف المجالات كالجانبين الاقتصادي والاجتماعي، اللذين أهملهما إطلاقا مكتفيا بالحديث عن الجوانب السياسية والتاريخية والثقافية والعمرانية لتلمسان.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- بوعزيز يحيى، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، سحب الطباعة الشعبية للجيش، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.
- 2- بوعزيز يحيى، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر، طبعة خاصة 2009.
- 3- بوعزيز يحيى، مدينة وهران عبر التاريخ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2009.
- 4- بوعزيز يحيى، دائرة الجعافرة تاريخ وحضارة وجهاد، إسهاماتها الثقافية والنضالية عبر العصور، دار هومة للنشر- الجزائر، 2012.
- 5- حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة- الجزائر، 2009 بدعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب.
- 6- ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م.
- 7- السلمي محمد بن صامل، منهج كتابة التاريخ الإسلامي مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1429هـ.
- 7- شاوش محمد بن رمضان، باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، 2011.
- 11- الطمار محمد بن عمرو، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، 1984، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية-وحدة رغاية، 1985.
- 9- الفيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية- الجزائر، 2002.
- 20- لوغوف جاك، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007.
- 10- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، 1984.

8- الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، دار الغرب الإسلامي- بيروت، (د.ت).

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Marc Bloch, Les caractéristiques distinctives de l'histoire rurale française, Librairie Armand Colin, Paris, Tome premier, 1968, 303 pages. Tome deuxième 1961, 314 pages.
- 2 - Pierre Chaunu, Séville et l'Atlantique, 1504-1650 : Structures et conjoncture de l'Atlantique espagnol et hispano-américain (1504-1650). Tome I: Structures géographiques, Edition réimprimée, Edition de l'IHEAL, Paris, 2019, Année d'édition : 1959, 1212 pages.